(٢) صفات النفس

لفضيلة الشيخ الدكتور: عبدالعزيزبن أحمد البداح

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

كنا تكلمنا في الدرس الماضي عن ما يتعلق بالنفس وأن الله عز وجل استأثر بحقيقتها وكنهها وأنواع النفوس وما أودعه الله عز وجل في هذه النفس من عجيب خلقه وبديع صنعه وهذه النفوس تعرض لها عوارض وتتصف بصفات، أكثر الله عز وجل في القرآن من ذكرها فقال سبحانه: ﴿...وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[الكهف:٥٤] وقال تعالى: ﴿... وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولًا﴾[الإسراء:١١] وقال سبحانه ﴿... إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾[الزخرف:١٥] وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾[العاديات:٦] وقال عز وجل: ﴿... وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾[فصلت:٤٩] وقال سبحانه: ﴿... وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[الأحزاب:٧٢] وقال سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[العلق:٦-٧]

وهذه الصفات والعوارض التي تتصف بها النفس البشرية وتعرض لها جُمِعت في قوله سبحانه: ﴿... وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[النساء:٢٨] وهذا الضعف وإن كان سياق الآية على أن المراد به أنه لا يصبر على النساء، لكن المعنى يدخل فيه كل أنواع الضعف، فهو ضعيفٌ في نفسه وفي إرادته وفي شعوره وفي مشاعره وفي بُنيته وفي أحواله كلها.

وقد جاء عند أحمد والترمذي وعند أبي داوود بإسنادٍ صحيح أن النبي ﷺ قال: ((إن الله خلق آدم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض فكان فيهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك وكان فيهم الطيب والخبيث والسهل والحزن وبين ذلك)).

فإذا تأمل الإنسان هذه الصفات التي أخبر الله عز وجل أن النفس البشرية تتصف بها وأنه يعرض لها هذه العوارض، علم أن الهلاك والعطب والآفات والسوء والفساد والانحراف أسرع إليها من إسراع السيل في حدوره ونزوله، لذا فيأتي مسألة الابتلاء والامتحان، لأن النفس البشرية تتنازعها هذه الصفات والعوارض التي بُليت بها ومراد الله عز وجل وتكليفه وأمره ونهيه وخبره، فصار العبد بين أن ينقاد وينسحب لصفاته تلك وعوارضه هذه ونوازعه التي ابتلي بها، وبين الاستجابة لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ ، ولذا فالمؤمن يحتاج حتى يرتقي بنفسه ويعتني بقلبه ويطهر

فؤاده يحتاج إلى أن يسلك أسباب الكمال التي ترتقي بهذه الروح وتطهر هذه النفس وإلا تبقى النفس مرتكسةً في هذه الصفات.

فينتهي الأمر إلى نفسين: نفسٍ بقيت مرتهنة بصفاتها وعوارضها من الطغيان والكفر والجزع والهلع والظلم والجهل وغيرها، وبين نفس المؤمن التي ارتقت بوحي الله تعالى والعمل به والاستضاءة بنوره، ارتقت إلى مراتب الكمال.